أثر الحضارة الاسلامية
فى الاحياء الأوربى
للأستاذ محمد عبد الله عنان

عصر الاحياء أو إحياء العلوم [1] من أعظم عصور التاريخ الأوربى ؛ وهو بلا ريب مطلع النور والعظمة فى حياة أوربا الحديثة وفى تكوينها السياسى والفكرى والاجتماعى ؛ وفى معترك الاحياء الساطع تذوب ظلمات العصور الوسطى التى خيمت على أوربا منذ سقوط الدولة الرومانية ، وبفتر ليلها الطويل عن حياة جديدة تسرى إلى جنبات القارة القديمة ، فتلقى من حولها غمر الماضى بقوة ، وتستقبل عصوراً جديدة من القوة والعظمة والسيادة فى جميع مناحى الحياة

وإنا لنشعر ونحن نستعرض تاريخ الأحياء أننا لا نتلو تاريخ أمم أو شعوب معينة ، وإنما نتلو صفحة من أنبل صفحات الانسانية تبهرنا بما حوت من المظاهر والمعانى السامية للعبقرية البشرية . ولقد كان تراث الأحياء وما يزال تراث الانسانية كلها ذلك أن ثمرات التفكير البشرى هى ملك الانسانية فى كل زمان ومكان ؛ ولم يكن تاريخ الاحياء مدى قرن ونصف فى معظم الدول الأوربية سوى تاريخ العلوم والفنون والآداب التى تفتحت فى ذلك العصر كما تتفتح الأزهار ، والتى بثتها إلى ظلمات العصور الوسطى أرواح وأذهان وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات التى ازدهرت بها ، وسمت بمبادئها ومثلها كما سمت بعبقريتها

ولقد كتب تاريخ الأحياء مدى القرون وما زال يكتب فى كل عصر ؛ ولكنه يتخذ دائماً طابعه القومى أو المحلى ، وقلما يكتب من الناحية الانسانية المحضة ؛ وإنك لتشعر حتى فيما يكتب عنه من الناحية الانسانية أن العوامل القومية والمحلية تتبوأ دائماً مكانتها وتنشى فيه كل نزعة أخرى ؛ وكثيراً ما تساءلت وأنا أستعرض هذه الصفحة الباهرة من تاريخ الانسانية ، كيف يغفل مؤرخو الغرب حين يكتبون تاريخ الأحياء عن استعراض صفحة أخرى من تاريخ الانسانية لا تقل عن صفحة الأحياء قوة وجمالاً وروعة هى صفحة الحضارة الغربية الاسلامية ، وما كان لها من أثر بارز فى بعث عصر الاحياء الأوربى ؟

والحقيقة أن هذه الناحية من تاريخ عصر الأحياء كثيراً ما تغمط حقها وتنكر علائقها وآثارها فى بعثه وتكوينه . بيد أنها تستحق منا نحن الذين يفهمونها ويقدرونها عناية خاصة ؛ وليس يكفى أن نكتب تاريخ الحضارة الاسلامية ، بل يجب أن نعالج آثارها فى تكوين مختلف المدنيات والحركات العقلية الأخرى ؛ ولقد كان الاحياء الأوربى حركة عقلية عظيمة ومطلع حضارة جديدة رائعة ، وكان لحضارة الغرب الاسلامى أثرها فى بعث هذه الحركة ، فمن واجبنا أن نستقصى هذا الأثر وأن نعرضه إلى جانب ما يعرض لنا من تطور حركة الاحياء الأوربى

ومن الصعب أن نحاول استعراض هذا الأثر فى مقال أو فصل ، ولكنا نحاول فقط أن نلم ببعض أطرافه العامة ؛ وأخص ما يبدو هذا الأثر فى النواحى الفكرية والاجتماعية من

(١) الرنيصانس Renaiseance

يا حسين ! ألا وإن ردّ خمسين ألف دينار هو كذلك قدرُ الضرورة

قال حسين : وذهبت أعترض على الامام بما كان فى نفسى من أن هذا المال وإن لم يكن من كسبه ، فقد كان يتحول فى يده عملا من أعمال الخير ؛ وأنسيتُ أن هذه الصدقات هى أوساخ الناس وأقذار نفوسهم ، فلم أكد أفتح فمى حتى رأيت الكلام يتحول طيناً فى فمى ليسدكرنى بهذا المعنى ؛ وكدت أختنق فانتفضتُ أتنفّس فطار النومُ والحلمُ

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

الى التلميذ العاشق : يابنى ان التلميذ الذى يعشق ويذهب يسأل عن الحب — إما أن يكون فاجرا فهو فى لعنة الله والملائكة ؛ وإما أن يكون خائبا فهو فى لعنة أبيه وأمه ، وإما أن يكون مهملا فهو فى لعنة الكتب والكراريس ..... وان استشارنى زدته لعنى أنا أيضا

الرافعى

عصر الأحياء ؛ ونلاحظ أن طوالع الأحياء ظهرت بادىء بدء فى إيطاليا وبدت فى الشعر بوجه خاص ، وحمل لواءها الأول شعراء نظام مثل دانتى وبترارك ، حاولوا أن يعيدوا بمجد الشعر الرومانى القديم ؛ ولم تكن هذه النهضة الشعرية الرائعة رغم اتجاهها إلى مثل ڤرجيل عميد الشعر الرومانى خالية من تأثير المثل الشعرية فى غرب أوربا . ذلك أن النهضة الشعرية التى أزهرت قبل ذلك بنحو قرن فى بروڤانس (جنوب فرنسا) والتى كانت حركة « التروبادور » الأدبية فى الشعر والقصص من أقوى مظاهرها ، كانت قد أحدثت آثارها فى الحركة الأدبية فى شمال إيطاليا حيث بزغ فجر الأحياء ؛ ولم يكن شعر دانتى بعيداً عن التأثر بعوامل الشعر البروڤنسى ووحيه ، بل لم يكن أسلوب دانتى نفسه بعيداً عن التأثر بالأساليب البروڤنسية ؛ ويرى علماء اللغة فوق ذلك أن اللغة الايطالية الحديثة والتى وضعت أسسها فى عصر الاحياء قد تأثرت فى تكوينها إلى حد كبير بالروح والتراكيب البروڤنسية القديمة ؛ ويشيد دانتى نفسه فى بعض قصائده الكبرى بعبقرية زعماء الشعر البروڤنسى ومثلهم الشعرية ، ويرى فى تيبول ملك ناڤار مثلا أعلى للشاعر ؛ فهذه الظواهر والعوامل كلها تدل على آثار النهضة الشعرية الغربية فى شعر الأحياء

هذا ومن جهة أخرى فقد كان الشعر البروڤنسى ذاته عرضة لمؤثرات قوية ، من الجنوب فيما وراء البرنيه . وكانت الحضارة الاسلامية فى الأندلس تنفث آثارها منذ القرن التاسع فى شمال اسبانيا وفى غاليس (جنوب فرنسا) ، وكان أثرها بالأخص قوياً واضحاً فى بروڤانس التى كانت مركز الحركة الأدبية فى الجنوب منذ القرن العاشر ؛ وكانت بروڤانس ذاتها مدى حين مستقراً لبعض المستعمرات العربية الغازية التى حملت إلى تلك الأنحاء كثيراً من التقاليد والمؤثرات الاسلامية ، ولا سيما فى شعر الفروسة ، بل لقد سرت هذه التقاليد والمؤثرات إلى الحركات الفكرية والأدبية فى أنكبردبه (لومباردى) ؛ فليس غريباً أن نستخلص من تفاعل هذه المؤثرات والعوامل كلها أن شعر الأحياء لم يكن فى بدايته بعيداً عن التأثر بمؤثرات الحضارة الاسلامية ومؤثرات الشعر الأندلسى عن طريق الشعر البروڤنسى

ومما يبعث حقاً الى الدهشة أن نجد شبها عجيبا فى الموضوع والخيال والتصوير بين « جحيم دانتى » وهى أعظم وأروع آثاره وبين أثر عربى أقدم هو رسالة الغفران للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى ، مما قد يحمل البعض على الظن بأن دانتى قد وقف بطريقة من الطرق على موضوع رسالة الغفران ، وقد كتبت قبل عصره بأكثر من قرنين ، ومع أن هذا الرأى لم يؤيد بصفة علمية واضحة ، الا أنه مما يلاحظ فى تأييده أن كثيرا من علوم العرب وآثارهم العلمية والعربية كانت معروفة فى شمال إيطاليا عن طريق البندقية منذ القرن العاشر الميلادى

هذا ونستطيع من الناحية العلمية العامة أن نقول أيضا إن بعث الأحياء الأوربى لم يكن بعيدا عن التأثر بمؤثرات العلوم الاسلامية ؛ فنحن نعرف أن الأندلس كانت منذ القرن التاسع الميلادى نبراس الغرب كله فى العلوم ، ونعرف أن مدارس قرطبة واشبيلية وغرناطة كانت فيما بعد كعبة الطلاب من سائر أنحاء أوربا ، وأن النهضة العلمية فى أوربا بدأت قبل عصر الاحياء على يد جماعة من الرهبان النصارى الذين تلقوا العلوم فى مدارس الأندلس مثل جربرت الراهب الفرنسى الذى ارتقى عرش البابوية فيما بعد باسم سلڤستر الثانى (سنة ٩٩٩ م) وآيثار وهو أيضا راهب فرنسى تفقه فى الفلسفة والعلوم المعاصرة وطار صيته فى أوائل القرن الثانى عشر ؛ وكان أعظم ما بتاق الرهبان العلماء — وهم يومئذ دعاة العلم فى الغرب الأوربى — الفلسفة اليونانية عن طريق العلماء والفلاسفة المسلمين ، ولاسيما ابن رشد الأندلسى الذى كان أول من عرف العالم الغربى بالفلسفة الارسطوطالية ، وقد ترجمت شروحه المستمدة من الفلسفة الارسطوطالية فى المنطق وما وراء الطبيعة الى اللاتينية منذ القرن الثانى عشر ، وكانت أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التى ازدهرت أيام الأحياء الأوربى فى شمال ايطاليا ، بل يرى مؤرخو الفلسفة أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية أكثر مما استمدت من قسطنطينية التى كانت مستودعاً لتراث المدنية اليونانية ؛ وليس من ريب فى أن جهود العرب فى ميدان الكيمياء والطب كانت أكبر مستقى للغرب فى هذا الميدان ؛

فقد كانت الكيمياء العلمية علما عربيا محضا ، وقد بلغت ذروة ازدهارها فى العصور الوسطى فى معامل قرطبة واشبيلية وغرناطة ، وكان أطباء الأندلس أساتذة الطب فى أوربا كلها ، واليهم كان يهرع الطلاب من سائر الأمم الشمالية ؛ وكانت مدرسة سالرنو الطبية فى جنوب ايطاليا تقوم على تراث الحضارة الاسلامية التى سادت صقلية وجنوب إيطاليا زهاء قرنين ؛ وكانت آثار الطب العربى تبدو فى هذا الميدان بصورة قوية بارزة ؛ ويمكن أن يقال مثل ذلك عن بعض العلوم الأخرى مثل الفلك والرياضيات ، وقد بلغت أيضا فى الأندلس شأوا عظيما

والخلاصة أن آثار الحضارة والعلوم الاسلامية فى بناء النهضة العلمية الأوربية واضحة لا يمكن انكارها ؛ واذا استثنينا ميدان الفنون فى نهضة الأحياء ، فانه يصعب علينا أن نتصور ناحية من نواحى هذه النهضة الفكرية الرائعة ؛ سواء فى العلوم أو الآداب تبعد كل البعد عن التأثر بعبقرية التفكير الاسلامى ، سواء مباشرة أو بواسطة عوامل أخرى . بيد أنه مما يؤسف له أن هذه الناحية لا تلاقى فى المباحث الغربية ما يجدر بها من الشرح والتقدير ؛ ويلاحظ أن مؤرخ الاحياء الأوربى يكاد يغفلها بصفة مطلقه ، هذا فى حين أن مؤرخ العصور الوسطى لا يستطيع أن يغفلها

ولكن معظم مفكرى الغرب ومؤرخيه ما زالوا ينظرون الى تاريخ العرب والاسلام والحضارة الاسلامية ومؤثراتها نظرة خاصة قلما تنجو من مؤثرات الدين والقومية ، بل لقد درج فريق منهم على اعتبار العرب ضمن القبائل والأجناس البربرية التى حطمت صرح الدولة الرومانية ، واعتبار الغزوات الاسلامية لجنوب أوربا كوارث دينية وقومية ؛ ومازالت المباحث التاريخية تبالغ فى تقدير مؤثرات الحضارة الرومانية فى أمم العصور الوسطى وتعتبرها دائما عاملا حاسما فى كل تطور فكرى أو اجتماعى ، هذا بينما نراها تقلل تقدير الحضارة الاسلامية ومؤثراتها ؛ ويلوح لنا أن الوقت قد حان لنعمل من جانبنا على تصحيح هذا الموقف ، ورفع هذا الاجحاف الذى يلحق بتراث المدنية الاسلامية فى أوربا ، والتنويه بما لهذا التراث من الآثار الحاسمة فى المدنية الأوربية بوجه عام ، وبما له من آثار خاصة فى معظم الحركات الفكرية التى قامت فى أوربا خلال العصور الوسطى

بيد أنه من الانصاف أيضا أن نقول إننا نلمح فى بعض المباحث الغربية المستنيرة أثر هذا التطور فى فهم المهام الانسانية التى أدتها الفتوحات الاسلامية فى العصور الوسطى ، وفى تقدير التراث العظيم الذى خلفته الحضارة الاسلامية ، وما كان لها من آثار خطيرة حاسمة فى تطور الحركات العقلية والاجتماعية فى تلك العصور ؛ ومن الحق أن نقول إن بحوث أولئك العلماء المستنيرين قد رفعت كثيرا من الحيف والاجحاف والريب التى لحفت ذكريات العرب والاسلام فى أوربا من جراء الصور والروايات الخاطئة المغرضة التى ما زالت تقدم منذ أحقاب عن العرب والاسلام الى المجتمع الأوربى الحديث

محمد عبد الله عنان